هيبة الدولة لدى المواطن الجزائري
ماضيا وحاضرا و مستقبلا

أ. بلهول نسيم
جامعة مولود معمري بتيزي وزو

قال الله تعالى:{وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ} وقال ابن القيم: " العالِم بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة فهو المجتهد في النوازل، فهذا النوع الذي يَسوغ لهم الإفتاء ويَسوغ استفتاؤهم ويتأدى بهم فرضُ الاجتهاد، وهم الذين قال فيهم رسول الله : ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها)) ".

* وبيانَ أنه لا يفتي في دقائق الجهاد إلا هو، وأنه يَحرُم استفتاء طلبة العلم فيها . فضلاً عن غيرهم . مهما زعموا أنهم فقهاء الواقع:

قال ابن تيمية: " وفي الجملة فالبحث في هذه الدقائق ـ أي دقائق أحكام الجهاد ـ من وظيفة خواص أهل العلم .. ".

* وبيانَ أنه لو أفتى فيها مَن ليس في رتبة العالم المجتهد أفسد البلاد وأرهق العباد؛ لأن العالِم يشمّ الفتنة قبل وقوعها، وأما غيره فلا يعرفها إلا إذا وقع فيها، وقد لا يعرفها:

قال الحسن البصري:"إن هذه الفتنة إذا أقبلت عرفها كلُّ عالم، و إذا أدبرت عرفها كلُّ جاهل ".

* وتحذيراً من مسالك الحركيين من الإسلاميّين الذين اتَّخذوا من السياسة جارحةَ صيد، واتَّخذها الأعداء آلةَ كيد:

قال عبد الحميد بن باديس: " فإننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها عن علم وبصيرة ... ولو أردنا أن ندخُل الميدان السياسي لدخلناه جهراً ... ولقُدنا الأمّة كلها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهل شيءٍ علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نَبلغ من نفوسها إلى أقصى غايات التأثير عليها؛ فإن مما نعلمه، ولا يخفى على غيرنا أن القائد الذي يقول للأمّة: (إنّكِ مظلومة في حقوقك، وإنّني أريد إيصالكِ إليها)، يجد منها ما لا يجد من يقول لها: (إنّك ضالة عن أصول دينك، وإنّني أريد هدايتَك)، فذلك تلبّيه كلها، وهذا يقاومه معظمُها أو شطرُها ...".

* **وتحذيراً من الحزبية التي فرّقت شمل المسلمين:**

قال محمد البشير الإبراهيمي: " أوصيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيات التي نَجَمَ بالشّر ناجمُها، وهجم ـ ليفتك بالخير والعلم ـ هاجمُها، وسَجَم على الوطن بالملح الأُجاج ساجِمُها، إنّ هذه الأحزاب! كالميزاب؛ جمع الماء كَدَراً وفرّقه هَدَراً، فلا الزُّلال جمع، ولا الأرض نفع! ".

* **وتحذيراً من مسالك الثوار:**

قال ابن خلدون: " ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء؛ فإن كثيرا من المنْتَحِلين للعبادة وسلوك الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجَور من الأمراء، داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف رجاءً في الثواب عليه من الله، فيَكثُر أتباعُهم والمتشبّثون بهم من الغوغاء والدهماء، ويُعَرّضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يَهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين؛ لأن الله سبحانه لم يَكتب ذلك عليهم ... ".

* **وبيانَ مغبّة الخروج على السلطان:**

قال الحسن البصري: " والله! لو أنّ الناس إذا ابتُلُوا مِن قِبَل سلطانهم صبروا، ما لبِثوا أن يرفع اللهُ ذلك عنهم؛ وذلك أنهم يَفزَعون إلى السيف فيوكَلُوا إليه! ووالله! ما جاؤوا بيوم خير قطّ!"، ثم تلا: {وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ودَمَّرْنا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُون}.

إنَّ الذي لم يختلف فيه المسلمون قديماً وحديثاً هو أن الطريق الذي ارتضاه لنا ربنا هو طريق الكتاب والسنة، فإليه يَرِدون ومنه يصدرون، وإن اختلفوا في وجوه الاستدلال بهما.

ذلك؛ لأنَّ الله ضَمِن الاستقامة لمتبع الكتاب فقال على لسان مؤمني الجن: {يا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ}.

كما ضَمِنها لمتبع الرسول ﷺ الذي قال له ربه: {وإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

لكن الذي جعل الفرق الإسلامية تنحرف عن الصراط هو إغفالها ركناً ثالثاً جاء التنويه به في الوحيين جميعاً، ألاَ وهو فَهْمُ السلف الصالح للكتاب والسنة.

وقد اشتملت سورة الفاتحة على هذه الأركان الثلاثة في أكمل بيان:

فقوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ} اشتمل على ركني الكتاب والسنة، كما سبق.

وقوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} اشتمل على فهم السلف لهذا الصراط، مع أنه لا يشكّ أحد في أن من التزم بالكتاب والسنة فقد اهتدى إلى الصراط المستقيم، إلا أنه لما كان فَهْم الناس للكتاب والسنة منه الصحيح ومنه السقيم، اقتضى الأمرُ ركْناً ثالثاً لرفع الخلاف، ألا وهو تقييدُ فَهْم الأخلاف بِفَهْم الأسلاف؛ قال ابن القيم: " وتأمل سراً بديعاً في ذِكْر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره؛ فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح"[1].

وقال: " فكلُّ من كان أعرف للحق وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم، ولا ريب أن أصحاب رسول الله و رضي الله عنهم هم أولى بهذه الصفة من الروافض ... ولهذا فسَّر السلف الصراط المستقيم وأهله بأبي بكر وعمر وأصحاب رسول الله ..."[2].

([1]) ((مدارج السالكين)) (13/1).

([2]) المصدر السابق (73.72/1)، وقد صحّ هذا التفسير موقوفاً على أبي العالية والحسن، ذكره ابن حبان في ((الثقات)) (229/6) تعليقاً، ووصله ابن نصر في ((السنة)) (27) وابن جرير في ((تفسيره)) (184) وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (21/1ـ22) والحاكم (259/2) وصحّحه هو والذهبي، وانظر أيضًا ((الإمامة والردّ على الرافضة)) لأبي نعيم (73)، فقد ورد

وفي هذا تنصيص منه ـ رحمه الله ـ على أن أفضل من أنعم الله عليه بالعلم والعمل هم أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأنهم شَهِدوا التنزيل، وشاهَدوا من هدي الرسول الكريم ما فهموا به التأويل السليم، كما قال ابن مسعود ﷺ: " من كان منكم مُسْتَنًّا فلْيستنَّ بمَن قد مات، فإن الحيّ لا تُؤْمَن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرَّها قلوباً، وأعمقها عِلْماً، وأقلّها تكلُّفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيّه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتَّبِعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم؛ فإنهم كانوا على الهدي المستقيم "[1].

وقال أيضا: " إنَّ الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه و سلم خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيّه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسَناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيّئاً فهو عند الله سيّء "[2].

إذًا فالمسلمون المقصودون لابن مسعود هم الصحابة؛ قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: " أصول السنة عندنا التمسُّك بما كان عليه أصحاب رسول الله والاقتداء بهم "[3].

فيه مثله عن ابن مسعود .

([1]) أخرجه بنحوه ابن عبد البر في ((جامع البيان)) (97/2) وأبو نعيم في ((الحلية)) عن ابن عمر (305/1).

([2]) رواه أحمد وغيره وهو حسن.

([3]) ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة)) للالكائي رقم (317) وانظر ((الشريعة)) للآجري

ومَن حظيَ برضى الله مِن بعدهم فلاقتدائه بهديهم، قال الله تعالى: {والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}[1].

وقد جاء تحديد زمن السلف الذين لا تجوز مخالفتهم بإحداث فهْم لم يفهموه، في حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله : » خيرُ الناسِ قَرْني، ثم الَّذين يَلُونَهم، ثم الَّذين يَلُونَهم، ثم يجيءُ قومٌ تَسبقُ شهادةُ أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادتَه «[2] متفق عليه.

ولهذا الأصل نظائر وأدلة من الكتاب والسنة، منها قول الله تعالى: {ومَن يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً}، والشاهد هنا في ضمّ مجانبة سبيل المؤمنين إلى مشاقَّة الرسول لاستحقاق هذا الوعيد الشديد، مع أن مشاقَّة الرسول وحده كفيلةٌ بذلك كما قال الله تعالى: {إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وسَيُحبِطُ أَعْمالَهُمْ}[3].

ومنها ما رواه عبد الله بن لحي عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فينا فقال: ألاَ إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: » ألاَ إن مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون

ص (14).

([1]) انظر تخريج استدلال مالك بهذه الآية في » إعلام الموقعين « لابن القيّم (95.94/4).

([2]) ومن ارتاب في عدد القرون فليرجع إلى » الصحيحة « للألباني رقم (700).

([3]) انظر » مجموع الفتاوى « لابن تيمية (194/19).

في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة « رواه أبو داود وغيره وهو صحيح.

والشاهد هنا في وصف الفرقة الناجية بالجماعة، والعدول عن إضافتها إلى الكتاب والسنة، مع أنها لا يمكن أن تخرج عنهما قط؛ والسر في ذلك يكمن في التنبيه على الجماعة التي فهمت نصوص الوحيين وعملت بهما على مراد الله ورسوله، ولم يكن يومئذ جماعة إلا أصحاب رسول الله ﷺ، ولذلك صحَّح أهل العلم . في الشواهد . اللفظ الآخر الوارد في هذا الحديث من رواية الحاكم وغيره وهو قوله ﷺ في وصف الفرقة الناجية: ((ما أنا عليه اليوم وأصحابي)).

ومنها ما رواه أبو داود وغيره بسند صحيح لغيره عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله موعظة بليغة، ذرَفت منها العيون ووجِلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودِّع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: » أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإنْ عبداً حبشيًا؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسَّكوا بها وعَضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

والشاهد هنا في الجمع بين اتباع السنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، ثم تأمل كيف جعل النبي ﷺ كلمته هذه وصيّته لأمته من بعده لتعلم صدق القول بأصالة هذا المنهج، ثم تأمل كيف قابل الاختلاف بالتزام هذا المنهج لتعلم أن ضابط (فَهْم السلف الصالح) سبب النجاة من التفرُّق، قال الشاطبيّ . رحمه الله .: " فقرن . كما ترى . سنّة الخلفاء الراشدين بسنّته، وأن مِن اتّباع سنّته اتّباع سنّتهم، وأن المحدثات خلاف ذلك، ليست منها في شيء؛ لأنهم فيما سَنُّوا: إمّا متَّبِعون لسنّة نبيّهم عليه السلام نفسها، وإمّا متّبِعون لما فهموا من

سنّته في الجملة والتفصيل على وجه يخفى على غيرهم مثلُه، لا زائدة على ذلك "[1].

وقد جعلتُ هذه النصوص من النظائر والأدلة على تأصيل ما أنا بصدده؛ لأنني وجدت ابن أبي العز نزع بها عند شرحه قول الطحاوي: " ونتّبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفُرقة "[2].

احتجْتُ إلى أن أؤصّل لمداخلتي في هذا الموضوع مّا كان جلّ الأحزاب الإسلامية يعمل على وَأْد ما يسمّى (بالنّقد الذّاتيّ)، وإجهاض الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وإخلاء أعظم ثغور المسلمين من مرابط، بحجّة السّتر على المسلمين تارة، وجمع الكيد للكافرين تارة أخرى، وغيرها من الحجج العاطفيّة التي تجعل العقول تُتخطّف من أصحابها في زمن الوهن العلميّ، كان لابدّ من ردّ الحق إلى نصابه {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ}.

" والذين يَلْوُون ألسنتهم باستنكار نقد الباطل وإن كان في بعضهم صلاح وخير، ولكنّه الوهن وضعف العزائم حينا، وضعف إدراك مدارك الحق والصّواب أحيانا، بل في حقيقته من التّولي يوم الزحف عن مواقع الحراسة لدين الله والذّب عنه، وحينئذ يكون الساكت عن كلمة الحق كالنّاطق بالباطل في الإثم، قال أبو علي الدّقاق:" الساكت عن الحق شيطان أخرس، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق ". والنبيّ يخبر بافتراق هذه الأمّة إلى ثلاث وسبعين فرقة، والنّجاة منها لفرقة واحدة على منهاج النّبوّة، أيريد هؤلاء اختصار الأمّة إلى فرقة وجماعة واحدة مع قيام التّمايز العقديّ المضطرب؟!. أم أنها دعوة إلى وحدة تصدِّع

([1]) » الاعتصام « (104/1).

([2]) ص (382. 383) ط. المكتب الإسلامي.

كلمة التّوحيد، فاحذروا.

وما حجّتهم إلا المقولات الباطلة :

لاتصدِّعوا الصفّ من الدّاخل!

لا تثيروا الغبار من الخارج!

لا تحرّكوا الخلاف بين المسلمين!

" نلتقي فيما اتّفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه !" وهكذا.

وأضعف الإيمان أن يقال لهؤلاء : هل سكت المبطلون لنسكت، أم أنهم يهاجمون الاعتقاد على مرأى ومسمع، ويُطلب السّكوت؟ اللهمّ لا...

ونُعيذ بـالله كل مسلم من تسرّب حجّة اليهود، فهم مختلفون على الكتاب، مخالفون للكتاب، ومع هذا يظهرون الوحدة والاجتماع، وقد كذّبهم الله تعالى فقال سبحانه : {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وقُلُوبُهُمْ شَتَّى}، وكان من أسباب لعنتهم ما ذكره الله بقوله :{كانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ}"[1].

" ولهذا فإذا رأيت من ردّ على مخالف في شذوذ فقهيّ أو قول بدعيّ، فاشكر له دفاعه بقدر ما وَسِعه، ولا تخذِّله بتلك المقولة المهينة (لماذا لا يردّ على العلمانيّين؟!)، فالناس قدرات ومواهب، وردّ الباطل واجب مهما كانت رتبته، وكل مسلم على ثغر من ثغور ملّته "[2].

وأصل هذا الباب النّصوص الواردة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر

---

(1) كتبه الشيخ بكر أبو زيد في » الردّ على المخالف من أصول الإسلام « ص (75.76).

(2) المصدر السابق ص (57).

كقوله تعالى: {ولْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ} قال ابن تيمية:" والأمر بالسنّة والنّهي عن البدعة هو أمرٌ بمعروف ونهيٌ عن منكر، وهو من أفضل الأعمال الصالحة ..."[1]، ولا ينبغي للجماعات الإسلامية اليوم أن تضيق صدورها بالنّقد؛ لأنّه من القيام بالقسط والشّهادة لله اللّذين أمرنا بهما ولو مع أنفسنا وأهل ملّتنا كما قال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِين إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَـاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} واللَّيّ هو الكذب، والإعراض هو الكتمان كما قال ابن تيمية[2]، فكيف يطيب لمؤمن دعوةٌ مع كتمان الأخطاء تستّراً بالمجاملات السياسية بعد هذا؟!

ولا شكّ أنّ الغيرة التي أودعها الله في قلب كلّ مؤمن على محارمه هي التي تحرّكه إلى القيام بهذا الواجب، كما قال النبي : ((إنّ الله تعالى يغار، وإنّ المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرّم الله عليه)) متفق عليه. وإذا كان كلما أراد المؤمن أن يقوّم المسار قيل له: ليس ذا الوقت والكفار متربّصون! فمتى يعرف أخطاءه؟ ومتى يحجم عنها؟ ومتى يصحّ المريض ويُقوَّى الضعيف؟ وقد روى أبو هريرة عن رسول الله قال: ((المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يَكُفُّ عليه ضَيْعتَه، ويَحُوطُه من ورائه))[3]. وليس من المولاة للمؤمنين في شيء أن تنصُر أخاك في باطله محتجّا بمواجهته الشيوعيّين، فعن أنس أن رسول الله قال:

---

(1) » منهاج السنة « (253/5).

(2) » مجموع الفتاوى « (235/28).

(3) رواه أبو داود (304/2) وهو صحيح.

((انصر أخاك ظالما أو مظلوما))، قيل: يا رسول الله! هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ قال: ((تمنعه من الظلم))، رواه البخاري ومسلم، وفي رواية لمسلم من طريق جابر بلفظ: ((إن كان ظالما فلينهه؛ فإنه له نصر)).

قال ابن تيمية في هذا المعنى: " ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم أو ذبّ عنهم أو أثنى عليهم أو عظّم كتبهم أو عُرِف بمساعدتهم ومعاونتهم أو كره الكلام فيهم أو أخذ يعتذر لهم، بأنّ هذا الكلام لا يُدرَى ما هو؟ أو من قال إنّه صنّف هذا الكتاب؟ وأمثال هذه المعاذير التي لا يقولها إلا جاهل أو منافق، بل تجب عقوبة كل من عَرَف حالهم ولم يعاون على القيام عليهم، فإنّ القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء، وهم يسعون في الأرض فسادا ويصدُّون عن سبيل الله "(1).

وفي الردّ على المخالف دفاع عن الإسلام من جبهتين:

" الأولى: الخطر الخارجيّ وهو الكافر المتمحِّض، الذي لم يعرِف نور الإسلام، بما يكيده للإسلام والمسلمين من غزو يحطِم في مُقَوِّماتهم العقديّة والسّلوكيّة والسياسية والحكميّة ...

الثانية: مواجهة التّصدُّع الدّاخليّ في الأمة بفشُوّ فِرق ونحل طاف طائفها في أفئدة شباب الأمّة ... إذ التّصدُّع الدّاخليّ تحت لباس الدين يمثِّل انكسارا في رأس المال : المسلمين، وقد كان للسّالكين في ضوء الكتاب والسنّة . الطّائفة المنصورة . الحظّ الوافر والمقام العظيم في جبر كسر المسلمين بردّهم إلى الكتاب والسنّة، وذلك بتحطيم ما قامت عليه تلك الفرق المفرّقة من مآخذ

---

(1) » مجموع الفتاوى « (132/2).

باطلة في ميزان الشرع "[1].

ومن ضنائن العلم ما قرأته لابن تيمية في التّمييز بين معاملة الخوارج ومعاملة الكفار، وهو يرفع اللّبس المتبادر إلى الأذهان الكليلة من بعض الأحاديث التي يظهر منها أنّ الخوارج شرّ من الكفار مطلقا، مع أنّ الصّحابة لم يكفّروهم، قال ـ رحمه الله ـ: " وما زالت سيرة المسلمين على هذا، ما جعلوهم مرتدّين كالذين قاتلهم الصدّيق ، هذا مع أمر رسول الله بقتالهم في الأحاديث الصحيحة، وما رُوِيَ من أنهم » شرّ قتلى تحت أديم السماء، خير قتيل من قتلوه « في الحديث الذي رواه أبو أمامة، رواه التّرمذيّ وغيره[2]؛ أي أنهم شرٌّ على المسلمين من غيرهم؛ فإنّهم لم يكن أحد شرّا على المسلمين منهم: لا اليهود ولا النّصارى؛ فإنّهم كانوا مجتهدين في قتل كل مسلم لم يوافقهم[3] مستحلين لدماء المسلمين وأموالهم وقتل أولادهم، مكفِّرين لهم، وكانوا متديّنين بذلك

([1]) اختصار لما كتبه الشيخ بكر في كتابه » حكم الانتماء إلى الأحزاب « ص (54.53).

([2]) صحّحه الألباني في تحقيقه لـ » سنن الترمذي « برقم (2398)، ولعلّ سبب تصدير ابن تيمية له بصيغة التمريض هو روايته له بالمعنى كما يظهر من سياقه، وهو مسلك معروف عند بعض المتقدِّمين من المحدِّثين كالبخاري في » صحيحه «، ولا يعنون به ـ حينئذ ـ تضعيف الحديث، ولفظه عند الترمذي من رواية أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوسا منصوبة على درج دمشق، فقال أبو أمامة:» **كلاب النار، شرّ قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه** « ، **ثم قرأ: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعتَه من رسول الله ؟ قال: " لو لم أسمعه إلا مرّة أو مرّتين أو ثلاثا أو أربعا حتى عدّ سبعا ما حدّثتكموه "، وعند ابن ماجه (62/1) بلفظ: ((**وخير قتيل من قتلوا**)).

([3]) أي أنهم يُجهِدون أنفسهم في قتل المسلمين كما سيأتي.

لعظم جهلهم وبدعتهم المضلّة ..."[1] أي أنّ الخوارج أقلّ جريمة من الكفار في الميزان العامّ الأخير، يكفي أنهم " من الكفر فرّوا "، لكن بالنسبة لما يعاني منهم المسلمون وما يوقعون بهم من المحن والبلايا فهم أعظم شرّا من الكفار، بل لا يخلص الكفار إلى المسلمين كما يخلص إليهم هؤلاء، ولذلك قد تُقَدَّم عقوبتهم في الدنيا قبل غيرهم، وتأمّل فقه ابن تيمية حين قال بعد كلامه السّابق بصفحتين: " والعقوبة في الدنيا تكون لدفع ضرره عن المسلمين، وإن كان في الآخرة خيرا ممّن لم يُعاقَب، كما يُعَاقَب المسلم المُتَعَدِّي للحدود ولا يُعَاقَب أهل الذِّمّة من اليهود والنّصارى، والمسلم في الآخرة خير منهم ".

فاحفظ هذا، وعضَّ عليه بالنّواجذ تتهاوى بين يديك عساكر الباطل المعطّلة لمجاهدة البدع وأهلها، كأولئك القائلين: " إن لم تكونوا معنا فأنتم معهم!! "، أو كأولئك القائلين: " تُوَجِّهون سهامكم إلى إخوانكم، والعلمانيون والشيوعيون أنشط ما يكونون في نشر الخلافات بينكم؟! ".

قال ابن تيمية[2]: " إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب؛ فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء، وقد قال النبي ﷺ : ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم،وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[3] ... ".

([1]) » منهاج السنة « (248/5).

([2]) » مجموع الفتاوى « (232/28).

([3]) رواه مسلم.

هذه شبهة تَرِد كثيرا على لسان من لم يتضلَّع بمنهج السلف يجيب عنها الشيخ محمد البشير الإبرهيمي . رحمه الله . بقوله: " وإنك لا تُبْعِد إذا قلت: إن لفشوِّ الخرافات وأضاليل الطرق بين الأمة أثرا كبيرا في فشوّ الإلحاد بين أبنائها المتعلمين تعلُّما أوروباويا الجاهلين بحقائق دينهم، لأنهم يحملون من الصغر فكرة أن هذه الأضاليل الطرقية هي الدين، وأن أهلها هم حملة الدين، فإذا تقدم بهم العلم والعقل لم يستسغها منهم علم ولا عقل، فأنكروها حقا وعدلاً، وأنكروا معها الدين ظلما وجهلاً، وهذه إحدى جنايات الطرقية على الدين. أرأيت أن القضاء على الطرقية قضاء على الإلحاد في بعض معانيه وحسم لبعض أسبابه. وقد قرأت في هذه الأيام لكاتب تونسي مقالاً ينعى فيه على جمعية العلماء إهمالها لهذه الجهة من جهات الفساد وهي الإلحاد، واعتذر عن علماء جامع الزيتونة بأنهم . وإن قعدوا في نواحي الإصلاح التي تخبّ فيها جمعية العلماء وتضع . قاموا في حرب الإلحاد بما شكرهم عليه، ولكنه حصر عملهم في هذا السبيل في خطب جمعية ينددون فيها بالإلحاد ويحذرونه، وفات هذا الكاتب الفاضل أن جمعية العلماء لم تسكت عن الإلحاد، بل هاجمته في أمنع معاقله، ونازلته في أضيق ميادينه، كما فاته أن صرعى الإلحاد لايغشون المساجد، فما تأثير الخطب الجمعية التي تلقى على المصلين؟ وهل يداوَى المريض بتحذير الأصحاء من المرض أو أسباب المرض؟ إلا أن العالم المرشد كالطبيب لا ينجح في إنقاذ المريض من الموت إلا بغشيان مواقع الموت ومباشرة جراثيم الموت "[1].

فـلله أكبر ما أقوى المنهج السلفي! وما أبخس الأحزاب لقدره!

([1]) » آثار محمد البشير الإبراهيمي « (133.132/1).

إذن فمواجهة هؤلاء حماية لديار المسلمين من أن تُغتال من تحتها، بجهاد المنافقين الذين يتسللون الصفوف لِواذا، قال الله تعالى: {يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ} قال ابن القيم: " وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة .. " إلى أن قال:" فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواصّ الأمة وورثة الرسل. والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه. وإن كانوا هم الأقلّين عدداً. فهم الأعظمون عند الله قَدْراً .. "[1].

ولما كان هؤلاء منضوين تحت صفوف المسلمين، فإن أمرهم قد يخفى على كثير من الناس، فكان بيان حالهم. لمن ولاؤنا لهم فرض علينا. آكد، ولذلك قال ابن تيمية: " وإذا كان أقوام ليسوا منافقين ولكنهم سمّاعون للمنافقين، قد التبس عليهم أمرهم حتى ظنوا قولهم حقا، وهو مخالف للكتاب، وصاروا دعاة إلى بدع المنافقين، كما قال تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}، فلا بد من بيان حال هؤلاء، بل الفتنة بحال هؤلاء أعظم، فإن فيهم إيمانا يوجب موالاتهم، وقد دخلوا في بدع من بدع المنافقين التي تفسد الدين، فلا بد من التحذير من تلك البدع، وإن اقتضى ذلك ذِكْرُهم وتعيينُهم، بل ولو لم يكن قد تَلَقَّوْا تلك البدعة عن منافق، لكن قالوها ظانّين أنها هدى وأنها خير وأنها دين، ولو لم تكن كذلك لوجب بيان حالهم "[2].

وأما مواجهتهم من الخارج؛ فلأن العدو لا يدخل عليك بيتك إلا إذا كانت منافذه مفتوحة أو ضعيفة، والفرق الإسلامية المنحرفة عن الناجية هم منافذ

([1]) » زاد المعاد « (5/3).

([2]) » مجموع الفتاوى « (233/28).

الكفار، وهل يجهل المسلمون أثر المتصوفة في استعمار البلاد الإسلامية وإعانتهم الكفار على ذلك؟ وقد قال ابن تيمية في الشيعة الروافض: " وهم يستعينون بالكفار على المسلمين، وقد رأينا ورأى المسلمون أنه إذا ابتُلي المسلمون بعدوّ كافر كانوا معه على المسلمين، كما جرى لجنكزخان ملك التتر الكفار، فإن الرافضة أعانته على المسلمين، وأما إعانتهم لهولاكو ابن ابنِه لما جاء إلى خراسان والعراق والشام فهذا أظهر وأشهر من أن يخفى على أحد، فكانوا بالعراق وخراسان من أعظم أنصاره ظاهرا و باطنا، وكان وزير الخليفة ببغداد الذي يقال له ابن العلقمي منهم، فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين، ويسعى بقطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم، وينهى عن قتالهم ويكيد أنواعا من الكيد، حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقال: إنه بضعة عشر ألف ألف إنسان أو أكثر أو أقل ... ولما انكسر المسلمون سنة غازان أخذوا الخيل والسلاح والأسرى وباعوهم للكفار النصارى بقبرص، وأخذوا من مرَّ بهم من الجند، وكانوا أضر على المسلمين من جميع الأعداء ..."[1].

قلت: ولذلك كان أئمتنا أفقه من أن يداهنوا المنحرفين عن منهج السلف، بل رأوا جهادهم أكبر الجهادين، كما قال يحيى بن يحيى شيخ البخاري ومسلم: " الذبّ عن السنة أفضل من الجهاد "[2]، رواه الهرويُّ بسنده إلى نصر بن زكريا قال سمعتُ محمد بن يحيى الذهلي يقول سمعتُ يحيى بن يحيى يقول: " الذّبُّ عن السُّنّة أفضلُ من الجهاد في سبيل الله، قال محمد: قلتُ ليحيى: الرجلُ ينفِقُ

([1]) » منهاج السنة « (159.155/5)، وانظر » مدارج السالكين « لابن القيم (72/1).

([2]) » مجموع الفتاوى « (13/4).

مالَه ويُتْعِبُ نفسَه ويجاهد، فهذا أفضلُ منه؟! قال: نعم بكثير! "[1].

وقال الحميدي شيخ البخاري : " والله لأن أغزو هؤلاء الذين يَرُدُّون حديث رسول الله ﷺ أحبُّ إلي من أن أغزو عِدَّتهم من الأتراك "[2]، يعني بالأتراك: الكفار. وقد وجدتُ مثل هذا عند من هو أعلى طبقةً من الحميدي؛ قال عاصم بن شُمَيْخ: فرأيتُ أبا سعيد ـ يعني الخدري ـ بعد ما كبِر ويداه ترتعش يقول: " قتالهم ـ أي الخوارج ـ أجلّ عندي من قتال عِدَّتهم من الترك "[3].

([1]) ((ذمّ الكلام)) ق (111.أ).

([2]) رواه الهرويُّ بسنده في » ذمّ الكلام « (228 ـ الشبل).

([3]) رواه ابن أبي شيبة (303/15) وأحمد (33/3)، هكذا وقع عنده: عاصم بن **شميخ بالخاء** وهو الصحيح، وقد رواه ابنه عبد الله في » كتاب السنة « (635/2) بإسناد أبيه نفسه إلا أنه جاء في المطبوع بتحقيق محمد بن سعيد القحطاني: عاصم بن **شميج بالجيم**، وقد كنت حسبته خطأ مطبعيا لولا أني وجدته مُثبَتا كذلك مرتين! قال محققه في أولاهما(634/2): " عاصم بن **شميج**! بمعجمتين مصغرا، **وتشديد الجيم**!! الغيلاني ... التقريب (384/1)!!!". فرجعت إلى » التقريب « فإذا فيه: " عاصم بن **شميخ** بمعجمتين مصغرا، أبو الفَرَجَّل بفتح الفاء والراء وتشديد الجيم ..."، فعرفت أن هذا الخطأ من تصرّف المحقق حين انقلبت عليه خاء اسم أبي عاصم إلى جيم كنيته، مع أن قراءة شميج بجيم مشددة متعذِّرة!
وهذه الرواية أعلّها المحقق بعكرمة بن عمار، إلا أنني وجدت لها متابعاً عند ابن أبي شيبة في » المصنف « (331/15) من طريق يزيد بن هارون قال أخبرنا العوام بن حوشب قال حدَّثني من سمع أبا سعيد الخدري ﷺ يقول في قتال الخوارج: " **لَهُوَ أحبّ إليّ من قتال الديلم** "، ومثل هذه المتابعة تنفع على الرغم من جهالة من روى عنه العوام بن حوشب، كما أجابني به شيخاي الفاضلان: عبد المحسن العباد وربيع المدخلي إذا لم يكن في الإسناد مقال آخر، ولا سيما وأن المجهول من أهل القرون المشهود لها بالخيرية كما نبّه عليه ابن كثير في » الباعث الحثيث « ص (97)، مع العلم أنه ممن ثبت سماعه من أبي سعيد ـ كما مرّ ـ وليس

قلت: ولذلك قال ابن هبيرة في حديث أبي سعيد في قتال الخوارج: " وفي الحديث أن قتال الخوارج أولى من قتال المشركين؛ والحكمة فيه أن قتالهم حفظ رأس مال الإسلام، وفي قتال أهل الشرك طلب الربح؛ وحفظ رأس المال أولى "(1).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم: " المتبع للسنة كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من الضرب بالسيوف في سبيل الله "(2).

وقال ابن القيم:"والجهاد بالحجة واللسان مقدَّم على الجهاد بالسيف والسنان "(3).

أعقد هذا الفصل ليعلم أولئك الذين سمّيتُ في هذه الدعوة، بما ينبغي أن يَشغلوا به هذه الثروة الهائلة من شباب دعوة الإسلام.

وأنقل إليكم كلمات من غرر الحكم عن ابن القيم وعبد الرحمن السعدي . رحمهما الله. وأرجو أن تتأمّلوها جيّدا، بارك الله فيكم.

هو عاصم بن شميخ الذي في إسناد أحمد؛ لأنه ليس في شيوخ العوام، وحديث عكرمة ينجبر؛ لأن ضعفه يسير، فقد قال فيه الحافظ في » التقريب « رقم (276): " صدوق يغلط " والله أعلم.

فائدة: نقل ابن منظور في » لسان العرب « في مادة: (دلم) عن ابن سيده أن الديلم جيل من الناس من الترك.

(1) » فتح الباري « لابن حجر (301/12).

(2) » تاريخ بغداد « (410/12).

(3) » شرح القصيدة النونية « للشيخ محمد خليل هراس (12/1)، وانظر: » الجواب الصحيح « لابن تيمية (237/1).

إصلاح الوقت لإصلاح الحال:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في فصل » كيف تُصْلِحُ حَالَكَ؟ «[1]: " هَلُمَّ إلى الدّخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نَصَب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطّرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والنّدم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاقّ، إنما هو عمل القلب ".

قلت: ما مضى من وقتك في معصية الله يمكنك استرجاعه، مهما قيل " الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك "، وهي حكمة صحيحة إلا أنّ الله استثنى منها التّائبين، فمهما ضيّعوا من وقت في زنى، بل في قتل، بل في شرك، فإنّ من تاب منها استدرك وقته ليس صحيفة بيضاء فحسب، بل قد كتب عليها الحسنات بدل السيّئات كأنّ وقته قد عُمِّر بها، والله لا يعجزه شيء وهو القائل: {والَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ ويَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً}.

وقال: " وتمتنع فيما يُستقبل من الذّنوب، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملا بالجوارح يشقّ عليك معاناته، وإنما هو عزم ونيّة جازمة تريح بدنك وقلبك وسرّك، فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنيّة ".

([1]) » الفوائد « ص (116.115).

قلت: وبهذا يتبيّن لك سرّ اقتران التوبة بالاستغفار في مثل قوله تعالى: {أَفَلاَ يَتُوبُونَ إلى اللهِ ويَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

فالاستغفار على معنى ترك ما مضى، والتوبة على معنى عدم الإصرار في المستقبل، وقد جمع الله بينهما في آية واحدة فقال: {والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ومَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

قال ـ رحمه الله ـ: " وليس للجوارح في هذين نصبٌ ولا تعبٌ،ولكنّ الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذُكر نجوت وفزت بالرّاحة واللّذة والنّعيم ".

قلت: وهذا يدلّك على سرّ اشتراط الله تعالى الإصلاح مع التوبة التي إذا أُطلقت دخل فيها الاستغفار، كقوله تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وكقوله: {إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، فالإصلاح حينئذ يكون على معنى إصلاح الوقت الحاضر، وقد قيل:

ما مضى حُلْم و المؤمَّل غيبٌ ولك الساعة التي أنت فيها

وهذا يُبيّن لك وجه ذكر (الإصلاح) بعد آيات التوبة، والله أعلم.

قال ـ رحمه الله ـ: " وحفظه أشقّ من إصلاح ما قبله وما بعده، فإنّ حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها، و أعظم تحصيلا لسعادتها، وفي هذا تفاوت النّاس أعظم تفاوت، فهي والله أيّامك الخالية التي تجمع فيها الزّاد لمعادك، إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار ... ".

قلت: من تدبّر القرآن وجد دعوته لا تخرج عن هذه الأوقات الثّلاثة، قال الله تعالى: {الـر . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ وبَشِيرٌ. وأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}، أي إنما أَحْكَم اللهُ كتابَه وفصّله لتعبدوه في هذه الأوقات الثلاثة بما أَمر.

فقوله: {أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ} لعبادة الوقت الحاضر؛ إذ التّوحيد أنفع وأصلح وأولى الطّاعات، وألزمُها مصاحَبةً لصاحبه.

وقوله: {وأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم} للماضي.

وقوله: {ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} للمستقبل[1].

وسبب التّركيز ههنا على التّوحيد لإصلاح الحاضر أمران:

الأول: أنّه لا يجوز أن يخلو وقت من الاهتمام به، وهو الجامع لتوحيد الرّبوبيّة وتوحيد الألوهيّة وتوحيد الأسماء والصّفات.

الثاني: أنّه أصل كل عمل صالح؛ ألا ترى أنّ الأعمال الصّالحة من مكمّلاته الواجبة أو المستحبّة؟! ولذلك كان أوّل شيء دعا إليه الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام؛ لأن من رسَخ التّوحيدُ في قلبه ظهرت بشاشتُه على سائر جوارحه، وأنبتت شجرتُه أطيبَ الثّمار كما قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا

---

(1) وهو أحد الأقوال الّتي فسّر بها الاستغفار والتّوبة اللذان في الآية كما حكاه الشّوكاني في فتح القدير « (481/2)، وهذا التفصيل الذي ذكره ابن القيّم في تقسيم الأوقات ليس نتاج فكر فكر مجرّد! بل أخذه ـ رحمه الله ـ من هدي السلف؛ فانظر لذلك آثاراً لهم في ((كتاب الزهد الكبير)) للبيهقي ص (196).

ويَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون}.

وهذه الدعوة الثلاثية تكرّرت في السّورة نفسها عدّة مرّات، قال الله تعالى: {وَإِلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ} إلى أن قال: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}.

وقال: {وَإِلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ وِاسْتَعْمَرُكُم فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}.

وقال: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} إلى أن قال: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنّ نبيّ الله ﷺ قال: » كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على راهب، فأتاه فقال: إنّه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا! فقتله فكمّل به مائة! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على رجل عالم، فقال: إنّه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم! ومَن يَحُول بينه وبين التوبة؟ فانطلِقْ إلى أرض كذا وكذا؛ فإنّ بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنّها أرض سوء، فانطلقَ حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقْبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قطّ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ـ أي حَكَماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيّتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة « متفق عليه.

في هذه القصة يظهر جليًا إصلاحُ هذا الرجل للأوقات الثلاثة، فبعد أن تاب من ماضيه، وعزم على التوبة في مستقبله، اشتغل بما يُصْلِح حاضرَه فوراً، ألا وهو الهجرة من دار الفساد ولم يترك لطول الأمل مجالاً، ولذلك لم تجد له الملائكة من عمل صالح إلا هجرته هذه، ولما كانت هي عبادةَ الوقت غُفر له؛ لأنّ التزامه بها دليل على الإخلاص للحق جلّ وعلا، ومنه يظهر أنه كان موحِّداً.

وعن البراء قال: أتى النبيَّ رجلٌ مقَنَّع بالحديد، فقال: يا رسول الله أقاتل أو أُسْلِم؟ قال: » أَسلِم ثم قاتل «، فأسلم ثم قاتل فقُتِل! فقال رسول الله : » عَمِلَ قليلاً وأُجِر كثيراً « متفق عليه.

و إنما ذكرت هذه القصة هنا لأمرين:

الأول: أنّ النبي لم يقبل منه الجهاد إلا بعد التوحيد، ولكن قَبِل منه جهاده قبل الصلاة.

الثاني: أنّ بعض الناس يستدل به على التهوين من شأن الصلاة والعمل الصالح وأنه ليس شرطا في جهاد المسلمين، وهو صحيح لو أن وقت الصلاة كان دخل مع وقت القتال فقدِّم القتال، وهذا ليس لهم عليه دليل، ويردّه بوضوح تشريع صلاة الخوف وقت المسايفة، وإنما كل ما في الأمر أن وقت عبادة الجهاد كان قد دخل، وأما وقت عبادة الصلاة فلم يحِن بعد، فأُمِر أن يشغل وقته بعبادته المناسبة. ولمّا كان التوحيد عبادة كل وقت لم يأذن له النبي في تأخيره، ولذلك كان من ثاقب فهم البخاري ـ رحمه الله ـ أن بوّب له بقوله: " باب: عمل صالح قبل القتال، وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم ". فتدبّر هذا تكن من الرّاشدين.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: " وله عليه (أي لله على العبد) في كل وقت من

أوقاته عبودية تقدِّمه إليه وتقرِّبه منه، فإن شغَل وقته بعبودية الوقت تقدَّم إلى ربّه، وإن شغله بهوى أو راحة أو بطالة تأخّر، فالعبد لا يزال في تقدّم أو تأخّر، لا وقوف في الطريق ألبتّة، قال تعالى: {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} "[1]، وقال: " فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد؛ فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل، وإما إلى أمام، وإما إلى وراء ... ما هو إلا مراحل تُطوَى أسرع طيّ إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف ألبتّة، وإنما يتخالفون في جهة المسير وفي السرعة والبطء "[2].

قلت: ويدل عليه قول النبيّ ﷺ: » كلُّ النّاس يَغْدُو؛ فبائعٌ نفسَه: فمُعْتِقُها أو مُوبِقُها « رواه مسلم، وفي رواية: ((يا كعب بن عجرة! الناس غاديان ...))[3].

قلت: كلُّهم يَغْدُون، فمن لم يبع نفسه لله الذي قال: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ}، باعها للشيطان المترصّد[4]؛ وذلك لأنّ الله خلق للإنسان وقتاً، وأمره بعبادات مناسبة لوقته فليست (الواجبات أكثر

([1]) » الفوائد « ص (187.188).

([2]) » مدارج السالكين « (267/1).

([3]) رواه عبد الرزاق (20719) وعبد بن حميد (1138) وأحمد (321/3) وابن حبان (7497)، وصحّحه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) ص (214).

([4]) أشار ابن تيمية إلى هذا المعنى، كما في ((مجموع الفتاوى)) (51/7) وابن القيم في ((الدواء الشافي)) ص (123. الريان).

من الأوقات) كما زعم حسن البنا[1].

ومن لم يَعمُر وقته بما أُمر به افترسه الشيطان ولم يمهله، قال الله تعالى: {واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ}، قال ابن القيم: " إنّ الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: {فأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} ولم يقل تَبِعَه؛ فإنّ في معنى {أَتْبَعَهُ} أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنًى "[2].

قلت: تأمّل حسن موضع الفاء بين {انسَلَخَ مِنْهَا} و{أَتْبَعَهُ} لأنّها تفيد ترتيب الإتْبَاع على الانسلاخ بلا مهلة و{لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَحِمَ}.

هذا في حقّ من شغل وقت الطاعة بالمعصية أو على الأقلّ يقال: ترك الطاعة، بل وحتى في حقّ من شغل وقته بطاعة خالصة لله لكن لم يحن وقتها بعد، ولذلك كان الجهل بما يصلح الوقت من عبادة يحْرِم النّفس زكاتها ورقيّها في درجات الصّلاح، يدلّ عليه آية وحديث:

. أما الآية فهي قول الله عز وجل: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ

([1]) » مجموعة رسائل حسن البنا « في أواخر » رسالة التعاليم « ص (30)، وهذه الكلمة التي فحواها اتهام الله بالظلم . كما ترى . قد جُعلت من وصايا الإمام، وكثيرا ما تُوزَّع في المحافل العامة. هذا وإن كنا نعلم أنهم يقصدون بها استنهاض الهمم للقيام بالواجبات الحركية! فنحن لا نعلم إلا الواجبات الشرعية بيسرها وسماحتها، والحمد لله المتفرِّد بالحكم؛ وإلا فلو كان الأمر لهؤلاء لأرهقونا بواجبات ما أنزل الله بها من سلطان!

([2]) » الفوائد « ص (100).

النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} فهؤلاء نُهوا عن القتال وأُمروا بعبادة الصبر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فشغلتهم عبادة الجهاد عن عبادة الصبر، ومن ثم لم يُحْكموا عبادة الصلاة والزكاة، فعوجلوا بعقوبة قلوبهم كما صرّحت الآية.

وأما الحديث فهو ما رواه أحمد والبخاري عن أبي سعيد بن المعلّى ﷺ قال: كنت أُصلي، فمرّ بي رسول الله فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته، فقال: » ما منعك أن تأتي؟ ألم يقل الله: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}؟ «.

ما أبلغها من موعظة! عبد يؤخِّر إجابة الرسول مشتغلا بصلاة النافلة يهدَّد بنقصان حياة قلبه؟ فكيف لو كان في لهو ولعب؟ فكيف لو استدرك على الله حين يأمره بالصبر على عدوّه أيام الاستضعاف فلا يستحيي أن يخالفه متظاهرا بحب الجهاد؟![1]

حكمة ذلك: لعل الحكمة في هذا كله ما أشار إليه الشيخ عبد الرحمن السعدي . رحمه الله . حين قال: " يرشد الله عباده من جهة العمل إلى قصر نظرهم على الحالة الحاضرة التي هم فيها ... وهذه القاعدة الجليلة دعا إليها القرآن في آيات عديدة، وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله، ومن أعظم ما يرقي العالمين إلى كل خير ديني ودنيوي، فإنّ العامل إذا اشتغل بعمله الذي هو وظيفة وقته، قصر فكره وظاهره وباطنه عليه فينجح، ويتمّ له الأمر بحسب حاله، وإن تشوّقت نفسه إلى أعمال أخرى لم يحن وقتها بعد، شُغل بها ثم استبعد حصولها ففترت

([1]) راجع » منهاج السنة « لابن تيمية (254/5 ...).

عزيمته، وانحلّت همّته، وصار نظره إلى الأعمال الأخرى كليلا، يُنقص من إتقان عمله الحاضر وجَمْع الهمّة عليه، ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همّته وقلّ نشاطه "[1].

قلت: ومنه قول الله عزّ وجلّ: {وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا ءَاتَاهُم مِن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وتَوَلَّوْا وهُم مُعْرِضُونَ. فأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}.

وقال أيضا: " وربما كان الثاني متوقفاً على الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني ".

قلت: ومنه قوله تعالى: {ويَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ} أي تأمر بالقتال، قال: {فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ. فَأَوْلَى لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ. فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ. فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا في الأَرْضِ وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ}.

فتدبّر كيف كان عاقبة السيّئة السوأى؛ إذ تولّوا عن القناعة بأمر الله لهم بالصلاة و الزكاة، وطمحت نفوسهم إلى جهاد عدوّهم قبل أن يُكتب عليهم، فلمّا كتب عليهم الجهاد تولّوا، فأصابتهم لعنة الله لأنّ ذلك الطموح كان حماسة عجول، أو دفاع منتقم، أو استشفاء متغيّظ متحرّف لقتال متحيّز إلى نفسه، إلى غير ذلك مما ترشح به قلوب الحركات الإسلامية اليوم. ولذا ترى المسلمين

([1]) » القواعد الحسان « ص (136) وقد أشار فيها إلى الآية الآتية.

اليوم . على وعيهم الكبير لما يدور حولهم ويُدبَّر لهم فيما يقال . لا ينقطع سؤالهم عن سبب تأخر صلاح المشتغلين بالدعوة، وقد يكونون ذوي نشاط وتنظيم كبيرين، في حين يقرأون عن الصحابة سيرة شبيهة بالخيال في عالم الكمال، وهم لا يتنبّهون إلى هذه القاعدة الجليلة ألا وهي: اشتراك جلّ الحركات الإسلامية في الاشتغال بما لايعنيهم في حاضرهم هذا، ألا وهو السياسة، والبحث عن قتال الأعداء، وهم لم يحاربوا أنفسهم العادية، فهل تراهم خلّصوا مجتمعاتهم بل وأنفسهم من الشركيات؟ وهل عرفوا ربهم كما عرفه السلف من غير تحريف للأسماء والصفات؟ وهل ترى مساجدهم مكتظة بأهلها في صلاة الفجر عند تنزل الملائكة من السموات؟ فإن الله يقول:{إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ ...}. وصدق رسول الله إذ يقول:» مِن حُسْنِ إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعْنِيه « رواه التّرمذيّ وهو حسن. فلن يحسن إسلامنا ما أقمنا على ما لا يعنينا في وقتنا هذا[1].

ومن أسرار الكتاب العزيز أن تُرتَّبَ هذه الآيات على آية فيها الأمر بإصلاح الوقت الحاضر بالتّوحيد، وإصلاح الماضي والمستقبل بالاستغفار وذلك قول الله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِين وَالمُؤْمِنَاتِ}.

وما أحسن خاتمتها حين قال سبحانه: {وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ومَثْوَاكُمْ}!

([1]) لا يَكبر عليك استدلالي بهذا الحديث في الباب فقد سبقني إلى نظيره الشيخ ابن عثيمين حين قال: " **إن مخاطبة المسئولين في الدولة مِن على هذا المنبر لا يَقتضيه العقل، ولا يأمر به الشرع؛ لأنه لا يُجدي شيئا، وما لا يُجدي شيئا فقد قال النبي : » مِن حسن إسلام المرء تَرْكه ما لا يعنيه « .**